فترة فجر التاريخ في الجزائر:
حالة معارف

د/ عزيز طارق ساحد

أستاذ محاضر - معهد الآثار – جامعة الجزائر

الكلمات المفتاحية: فجر التاريخ، معلم جنائزي، جثوة، بازينة، تأريخ.

Mots clés: Protohistoire, monument funéraire, tumulus ،bazina, datation

الملّخص:

يهدف هذا المقال إلى تعريف أهم مراحل البحث وتوضيح تطور ظاهرة الدفن في فترتي ما قبل التاريخ وفجر التاريخ في الجزائر، كما تم طرح إشكاليات عديدة خاصة بالتعريفات المختلفة لهذه الفترة والتي يتفق الباحثون على أن بداية ونهاية فجر التاريخ تبقى غامضة في مختلف جوانبها رغم التأريخات التي تمت على العديد من المواقع والتي لم تحل هذه الإشكاليات إلى يومنا هذا.

Résumé:

Cet article vise dans un premier temps à définir les différentes étapes de la recherche scientifique en Algérie en montrant l'évolution de l'inhumation connue dans la préhistoire et la protohistoire ; et dans un deuxième temps dévoiler les différentes définitions des chercheurs qui partagent un même avis à savoir que le début de la protohistoire et sa fin restent encore obscures à nos jours et ce malgré les différentes tentatives de datations effectuées dans plusieurs protohistoriques.

المقدمة:

تزخر الجزائر بعدد كبير من المعالم الجنائزية لا تعد ولا تحصى وهي موزّعة عبر كل مناطق التراب الجزائري مع تجمعات مختلفة، غير أن الشرق الجزائري يحظى بتمركز هام لهذه المعالم الجنائزية، مما سمح اكتشاف عدد كبير من المقابر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين خاصة في الجنوب وفي الشرق القسنطيني (رأس عين بومرزوق وسيلا وبوشان وسيغوس وبونوارة وغاستيل ومحيجبة وايشوكان والدوسن وسفيان والزوي والشمرة وغيرها).

تعد المعالم الجنائزية لفترة فجر التاريخ قليلة البحث والاهتمام بالجزائر رغم الأعمال التي قام بها الباحثون الأوائل في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث اهتموا بالمعالم المكتشفة عن طريق الصدفة والتي كانوا يجدونها في طريقهم ومسالكهم خلال استكشافاتهم.

تعود ندرة وقلة الأبحاث الأثرية في الجزائر إلى ظروف ومشاكل متعددة من جهة، وإلى المحيط الصعب والحالة السيئة للمواقع الأثرية من جهة ثانية، مما يعيق البحث الأثري عن بقايا المرفقات الجنائزية وبقايا الهياكل العظمية وغيرها. إلى جانب ذلك، فإن العمل في وسط بيئي شبه جاف وجاف يعرقل إجراء حفريات وتنقيبات منتظمة في ظروف جيدة.

لقد أجريت تنقيبات في هذه المعالم الجنائزية بطريقة غير علمية وغير قانونية أدى إلى إتلافها وضياع محتوياتها من جهة وتعرّضها للنهب والسرقة من جهة ثانية. تعرف المعالم الجنائزية في الجزائر عامة بعدة تسميات أهمها الرجم والمزارة والجدر وهنشير، قبور الرومية، قبور الجهالة ويعتبر هذا المصطلح الأخير الأكثر تداولا في مناطق الجزائرية.

لقد أثبتت الحفريات التي أجريت في المعالم الجنائزية في الجزائر أن المرفقات الجنائزية التي تم اكتشفها لم تشد اهتمام الباحثين ولم تجلب أنظارهم، حيث راعوا

في دراساتهم التصميم المعماري من حيث المظهرين الداخلي والخارجي اللّذان كانا يتميّزان بالتنوع والأهمية من حيث الشكل العام بالنسبة إليهم حيث أعطيت عدة تفسيرات وأوصاف حول أنواع وأنماط المعالم الجنائزية المختلفة التي تتميّز بعمارة متعددة ومعقدة.

يجدر القول في هذا المضمار أن أبحاث فجر التاريخ في الجزائر اقتصرت فقط على المعالم الجنائزية الكثيرة والمتنوعة في نفس الوقت، حيث أهمل الباحثون دراسة آثار المسكن والمخلفات الزراعية وغيرها من المخلفات التي يمكن أن تسلّط الضوء على جوانب مختلفة من حياة شعوب فترة فجر التاريخ، علما أن الجزائر عامة تكتنز عدة شواهد تعود لفترة فجر التاريخ، والتي يمكن أن تقدّم معلومات تفيد في معرفة مختلف جوانب نشاطات وحياة الإنسان اليومية بالإضافة إلى التنظيم الاجتماعي لهذه الشعوب خلال الأزمنة الغابرة.

ومما تجدر الإشارة إليه فإن علم الآثار في فترة فجر التاريخ يسعى إلى البحث عن البنيات الجنائزية للمعلم، ويعتمد على الفضاء القبري والديني والمقدّس والتأبيني. فيقوم المختص في فترة فجر التاريخ بجمع أقصى ما يمكن من الوثائق المادية الموجودة في التراب حتى يتسنى له إعادة تشكيل الطقوس الجنائزية والتعرّف على الرعاية التي حظي بها الميت في عملية الدفن، التي تبيّن وتوضّح التفكير الذي كان سائدا آنذاك حول الحياة الأخرى مما يدل على دفنه بجانب مرفقاته اليومية كالفخار والحلي والأسلحة وغيرها من الأدوات التي كان يستعملها في حياته اليومية.

أما فيما يخص الجهود العلمية حول هذا الموضوع فهي قليلة مقارنة بما أنجز في مجال فجر التاريخ في أوروبا، وقد حاول الباحثون المساهمة في إبراز بعض الجوانب المعمارية منها، لكنها تبقى دراسات سطحية وغير معمّقة في غياب التأريخات والعلوم الحديثة المساعدة، مثل الأنتروبولوجية الفيزيائية غير أن هذه الأعمال تبقى مفيدة.

I. تاريخ الأبحاث:

يشكّل تعريف فجر التاريخ في بلاد المغرب موضوع جدال كبير بين الباحثين الذين اهتموا بهذه الفترة وتكمن صعوبته في تعيين الحدود الكرونولوجية حيث نجم عنه صراع كبير رغم الدراسات التي اعتمد عليها الباحثون. يتّفق جلّ الباحثين عن وجود فترة فجر التاريخ في بلاد المغرب التي تنحصر بين نهاية العصر الحجري الحديث(1) والفترة البونية(2)، في حين تبقى نهايتها مبهمة ومجهولة، ويرجع ذلك لأسباب عديدة ومختلفة مرتبطة بظهور الكتابة ونهاية عصور ما قبل التاريخ، وأصبحت هذه الفترة تعد من أصعب الفترات في البحث الأثري، وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى النقص الكبير في المعطيات الأثرية وقلة الحفريات إن لم نقل انعدامها في الجزائر(3).

1. **الأبحاث القديمة**: فيما يخص الأبحاث القديمة التي تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، قامت شخصيات عديدة من أطباء وعسكريين وإداريين وبعض الأقلية من المختصين، باكتشافات علمية عديدة بالجزائر ولا سيّما في الجزائر الشرقية. وكانت كلها غير مراقبة وغير قانونية حيث سبقت الحفريات الأثرية العلمية المنتظمة سعيا وراء ذلك للبحث عن الكنوز، مما أدى إلى تدمير عدد معتبر من المعالم الجنائزية، ومن الأمثلة الكثيرة المتداولة عند الباحثين يمكننا ذكر البعض منها، ويقول Léon L'Africain في هذا الصدد أن هناك مؤسسة تابعة لزاوية توجد بمدينة فاس بالمغرب الأقصى متخصصة في حفر هذه المعالم الجنائزية(3)، وأكد عليها العديد من الباحثين الذين اهتموا بهذه الفترة، ومن بينهم P. Tommasini أثناء قيامه بأبحاث في منطقة معسكر بالغرب الجزائري، يقول أنه تم حفر العديد من المعالم الجنائزية من طرف أشخاص مجهولي الهوية يبحثون عن الكنوز ليلا، جاءوا من المغرب الأقصى مرفقين بمعلومات ومعطيات(5)، وهذه القصة متداولة كثيرا في الأوساط الشعبية بمناطق الأوراس لاسيّما في منطقة نقاوس ومنطقة ايشوكان.

لقد أهتم الهواة والباحثون بالمعالم الجنائزيـة في الجزائـر وكـان أولهـم في القـرن الثامن عشر الدكتور T. Shaw (6) والذي يعد أول باحث من وصف دولمان موقع بني مسوس(7) ، ثم يليه في القرن التاسع عشر الطبيب J. L. Guiyon الـذي كـان يرافق الجيش الفرنسي في حملاته بالتراب الوطني، وكانت بداية أعماله هو اكتشاف أولى المعالم الجنائزية في ضواحي الجزائر التي نسبها إلى الغاليين (8)، يضاف إليهما العسكري Rozet الذي سبقه في الإشارة إلى هذه المعالم الجنائزية (9).

وتعد الفترة الممتدة ما بين 1860 و1900 من أهم فترات الاكتشافات في الجزائر حيث قام العديد من الباحثين والعسكريين أمثال:

،Berbrugger ،A. Letourneux ،Faidherbe ،De Boysson ،L. Féraud

،Reboud ،Bourguignant ،Payen وغيرهم بأعمال حفريات وبحث في الكثير مـن المقابر بالشرق الجزائري ومن أهمها: الركنية ورأس الـواد بـو مـرزوق وغاسـتيل وبونوارة وايشوكان وغيرها، وقد نشرت جل المقالات في مجلة:

«Recueils, mémoires et notices de la société archéologique de Constantine.»

نسب L. Féraud هذه المعـالم الجنائزيـة إلى الحضـارة الغاليـة– الرومانيـة – (Gallo Romains) التي يقول أنها انتشرت بشمال إفريقيا، غير أن ذلك التأكد ليس له مـدلول علمي(10)، وتطرق A. Letourneux (11) لمسألة أصـل هـذه المعـالم الجنائزيـة الـذي يؤكد أنها بربرية الأصل، كما قام L.Faidherbe بدور كبير في تعريف المعالم الجنائزيـة بالشرق الجزائري خاصة مقبرة الركنية التي أجرى فيها عدة حفريات حيـث أثبـت أن هذه المعالم الجنائزية خاصـة الـدولمان منهـا تعـود إلى السـكان الأصـليين وهـم البربـر القدماء، باعتماده على دراسة مقارنة لجماجم عثر عليها في المعالم الجنائزية (12).

أما فيما يخص مناطق الأوراس، فقد تم التحـري والتفتـيش الأثـري فيهـا مـع توغل الاحتلال الفرنسي في المناطق الصعبة، حيث تمت هذه العمليـات علـى يـد عسـكريين مـن أهمهـم: Delamare وCarbuccia وPayen وJ. Jullien وL. Rinn

وVercoutre وVaissière وغيرهم، دون أن لا ننسى أيضا دور ضباط الوحدات الطبوغرافية الذين قاموا بعمل هام أثناء إنجازهم للخرائط الطبوغرافية مشيرين بذلك إلى المعالم الجنائزية برمزπ. وكان للباحث E. Masqueray (13) دور كبير في تعريف الأوراس في مختلف جوانبه جغرافيا وأثريا واجتماعيا...(14).

وفي بداية القرن العشرين، انفرد St. Gsell بمكانة مرموقة ورائدة على رأس البعثة الأثرية ببلاد المغرب، كما أنه يعتبر من أول الباحثين الذي نجح في جمع أكبر قدر من المعلومات وإثرائها، حيث ألّف أولى الكتب العلمية بشأن المعالم الجنائزية وحياة شعوب فجر التاريخ في غضون القرون الأخيرة قبل الميلاد، وهذا في الجزأين الخامس والسادس للتاريخ القديم في شمال إفريقيا، معتمدا على المعطيات التي جمعها باحثو القرن التاسع عشر والقرن العشرين. وقد تمكّن من وضع تصنيف أوّلي للمعالم الجنائزية مصحوبا بأهم توزيعاتها الجغرافية، ثم تصنيف ثان أكثر وضوحا من التصنيف الأول، ويعد طرحه دعما أكيدا لا غنى عنه لباحثي فجر التاريخ (15).

وتعد أبحاث St. Gsell من أهم الأبحاث في مجال فجر التاريخ من حيث الإثراء والمنهجية، حيث قدّم فيها توضيحات هامة معتمدا على النصوص القديمة فيما يخص نمط معيشة شعوب فجر التاريخ وأهمية دور المجتمعات الريفية في بلاد المغرب (16).

وقد أشار G. Camps إلى ملاحظة هامة وهي أن St. Gsell هو مؤرخ وليس أثري (17) وهذا رغم نشره لمقال يصف فيه حفريات جثى موقع بوغار بضواحي قصر البخاري (18). وقد تم التأكّد من ذلك بعد مقارنة المعطيات الخاصة بمواقع فجر التاريخ في مناطق الأوراس بتلك المذكورة في أطلسه الأثري، إذ يظهر أنه لم يزر الأوراس ولم يحدّد المعالم الجنائزية بالضبط كما أنه لم يقم بوصفها ولم يحصيها بدقة.

وفي الفترة الممتدة من سنة 1910 إلى 1950 أجريت تنقيبات أثرية في الدولمان والبازينات والجثى قام بها شخصيات عديدة أمثال M. Reygasse وA. Debrugge و Le R. Du و P. Roffo وDr. Marchand وغيرهم ممن ساهم في إثراء المراجع الأثرية.

وبالنسبة M. Reygasse فقد قدّم من جهته معارف جديدة بشأن المعالم الجنائزية الموجودة بالصحراء، والتي لم تكن معروفة من قبل حيث أطلق عليها تسمية الما قبل الإسلامية لشمال إفريقيا عوض مصطلح فجر التاريخ، ويعد موقع تيت الموجود شمال تمنراست من أهم المواقع التي أهتم بدراستها وقام بحفر معالمها الجنائزية (19).

وفيما يخص مناطق الأوراس، فإن أهم الأعمال الميدانية التي أجريت هي تلك التي قامت بها الفرقة الألمانية والتي كان يترأسها L. Frobenius في سنة 1916(20) ، إذ قدّمت نتائج هامة تتعلّق بحفريات ودراسات المعالم الميغاليتية الخاصة بمقبرة ايشوكان (21).

وانطلاقا من النصف الثاني من القرن العشرين، تكاثفت الأبحاث في فترة فجر التاريخ وعرفت تقدّما كبيرا، إذ أجريت أشغال حفريات عديدة بمقابر موقعي بني مسوس وبونوارة وغيرهما التي عرفت نتائج هامة. إضافة إلى ذلك فقد تم إجراء استكشافات عديدة بمناطق سطيف وقسنطينة وبوسعادة بضواحي الهامل وفرندة بمنطقة تيارت ومعسكر وبني صاف (22).

ولقد أثار G. Camps قضايا أكثر أهمية وإشكاليات مبهمة وغامضة في فترة فجر التاريخ، وخاصة تلك المتعلقة بالتعمير البشري المعروفة جيّدا في هذه الفترة وإبان عهد الإمبراطورية الرومانية، فأضاف في رسالته معطيات كثيرة ومتنوعة حول مختلف آثار فجر التاريخ لبلاد المغرب. ويبدو أن السكان الريفيين كانوا قد حافظوا بأمانة على تقاليدهم وأساليب معيشتهم إلى فترات متأخرة، وهذا ما يصعب التدقيق في الحدود الزمنية.

وقد أستطاع G. Camps أن يعرّف الفترة الكالكوليتية على أنها مرحلة انتقالية بين العصر الحجري الحديث وفجر التاريخ، عندما استعمل الإنسان صناعة الحجارة والنحاس في وقت واحد، كما تؤكده الاكتشافات في مواقع العصر الحجري الحديث في الساحل الغربي الجزائري (23).

2. الأبحاث الحديثة أو ما بعد الاستقلال: تعد الأبحاث في مجال فجر التاريخ بعد الاستقلال قليلة جدا إذا ما قورنت بالأبحاث القديمة، وكل ما هو معروف من أبحاث يمكن ذكر أعمال J. P. Savary الذي قدم طرحا جديدا في دراسة المعالم الجنائزية في موقع فدنون بمنطقة الطاسيلي- نازجر، حيث تمكّن أن يحصيها معتمدا على الصور الجوية، كما أبرز توزّعها الفضائي بالمنطقة، بالإضافة إلى ذلك فقد أوضح بأن الصّور الجوية ما هي إلا وسيلة تحضيرية ضرورية قبل بداية الحفرية حيث تصطدم بجملة من العقبات التي تشوّه المعطيات في كثير من الأحيان (24)، ومنذئذ لم يعد يهتم إلا قليل من الباحثين بهذه الفترة.

تلت هذه الأبحاث بعض الاستكشافات لبعض مواقع فجر التاريخ، في الشرق وفي الوسط الجزائري خلال سنوات التسعينات، تضمنت الأولى اكتشافات منطقة نقاوس لجبال بلزمة بشمال غرب الأوراس، حيث تمت حفريات منتظمة بمقبرة سفيان خلال سنتي 1991 و1992(25)، أما البحث الثاني فتضمن أعمال ميدانية بمنطقة آشير بنواحي عين بوسيف حيث تم العثور على مواقع كثيرة، وإجراء تنقيبات لبعض المعالم الجنائزية خلال سنتي 1991 و1992 كذلك (26).

وأعقبت هذه الأعمال في سنوات 2005 و2007 و2008 أعمال أخرى تم من خلالها اكتشاف مواقع جديدة وعديدة غير معروفة بمنطقة الأغواط بجبل الميلق والحويطة ووادي مزي وغيرها، خاصة أعمال التحري والتفتيش وحفريات لمنطقة وادي مزي التي لم يشر إليها الباحثون من قبل، رغم أهميتها من حيث عدد وتنوّع المعالم الجنائزية فيها ونظامها المعماري (27).

هذا، وقد أتاح الاستكشاف الذي أجري ما بين سنتي 2001 و2007 بتحديد قطاعات شتى من مناطق الأوراس، واكتشاف عدد معتبر من المعالم الجنائزية وتهيئات حجرية وحصون طبيعية وملاجئ كهوفية، تدل على ثراء كبير لا يزال في حاجة إلى بحث علمي دقيق. وتشكّل هذه المعالم الجنائزية القسط الأكبر من آثار

فجر التاريخ في الأوراس، حيث يوجد البعض منها في شكل مجموعات والبعض الآخر في شكل مقابر كبيرة أما البقية الأخرى فهي مبعثرة، أما المقابر الكبيرة فهي تغطي مساحات معتبرة في غالب الأحيان، خاصة بجبال بوعريف والأوراس والبوص وجبل أحمر خدو وخاصة بمنطقة نقاوس.

II. حالة معارف وأهم تعريفات فجر التاريخ:

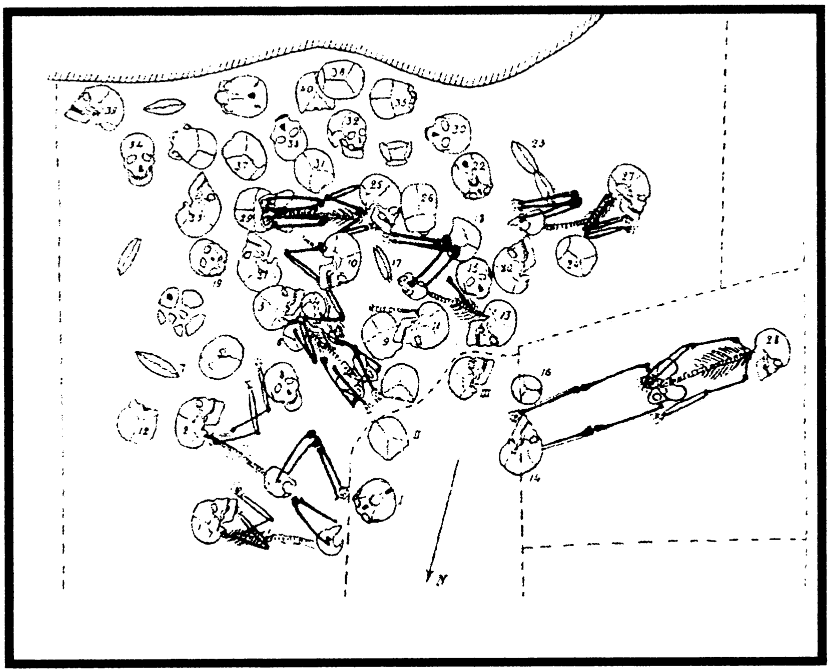
1. **تطور ظاهرة الدفن:** عرف إنسان ما قبل التاريخ الشعور الديني مبكرا ورسخه أساسا في وجود المدافن (28) التي أقامها في دفن موتاه. ومع ظهور العصر الحجري القديم المتأخر في بلاد المغرب عامة وفي الجزائر خاصة، نستطيع التحدث عن الحياة الروحية لإنسان ما قبل التاريخ.

فقد عثر على الكثير من الهياكل العظمية المحفوظة جيدا في العديد من المواقع التي تعود إلى هذا العصر، كما أنه يعتبر أول إنسان مارس شعائر ومعتقدات محدّدة تدل على درجة عالية من التقدّم الفكري، والتي لم يعرفها أسلافه من قبل، إذ لم يترك أي أثر يدل على ظاهرة الدفن.

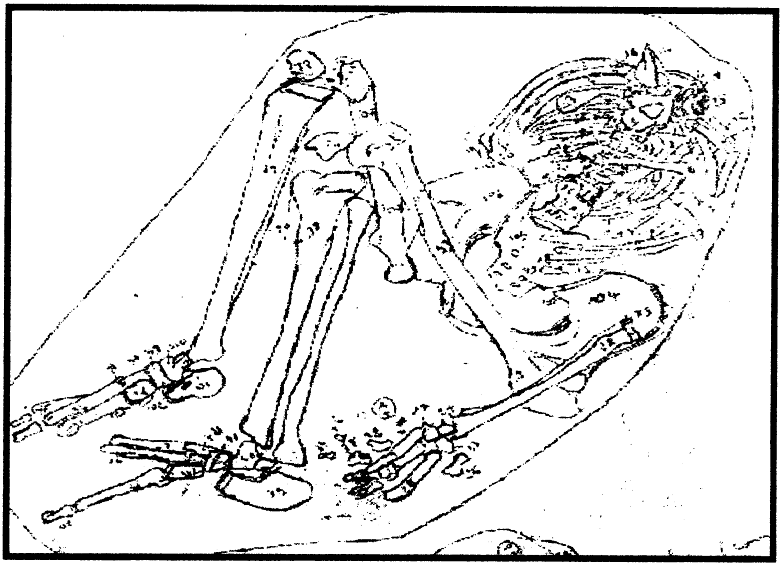
تعود مراسم الدفن والطقوس الجنائزية الأولى في بلاد المغرب إلى العصر الحجري القديم المتأخر، حيث تم الكشف عن بقايا بشرية عديدة في موقع آفالو - بو- رمال بالقرب من بجاية (29) (شكل رقم:1). وقد أثبتت الأبحاث في أواخر القرن العشرين لهذا الموقع على وجود العديد من الهياكل العظمية تدل على ممارسات طقوسية خلال هذه الفترة(30)، وتكرّرت هذه الاكتشافات في عدة مواقع منها موقع تازة بساحل جيجل الذي تم العثور فيه على بقايا عظمية هامة (31)، وموقع تافورالت بالمغرب الأقصى التي كشفت الحفريات فيها على عدد هائل من الهياكل البشرية في وضعيات مختلفة تدل عن ممارسات خاصة في الدفن(32)، وموقع افري نبارود الموجود بالريف الشرقي للمغرب الأقصى، حيث تم اكتشاف دفن أولي في وضعية جلوس متميزة بحالة حفظ جيدة (شكل رقم:2)(33).

وبحلول العصر الحجري الحديث، كان الموتى يدفنون في خنادق أو حفر محاطة بحجارة على شكل أضرحة، ومن أهم الأمثلة على ذلك يمكن ذكر موقع كلومناطة بالقرب من سيدي الحسني بمنطقة تيارت (شكل رقم:3) (34) ، وموقع السخيرات (35) حيث تم اكتشاف أكثر من مئة هيكل مرفق بأدوات مختلفة تمثّلت أساسا في فؤوس مصقولة وقشور بيض النعام وأصداف بحرية مخرّمة وغيرها.

بالإضافة إلى ذلك فقد هيئت القبور تدرجيا إلى أن أصبحت تهيأ على شكل معالم جنائزية محضة (36)، بحيث تكون مقابر واسعة مثل مقبرة بونوارة ومقبرة الركنية ومقبرة سفيان ومقبرة ايشوكان بالجزائر الشرقية.

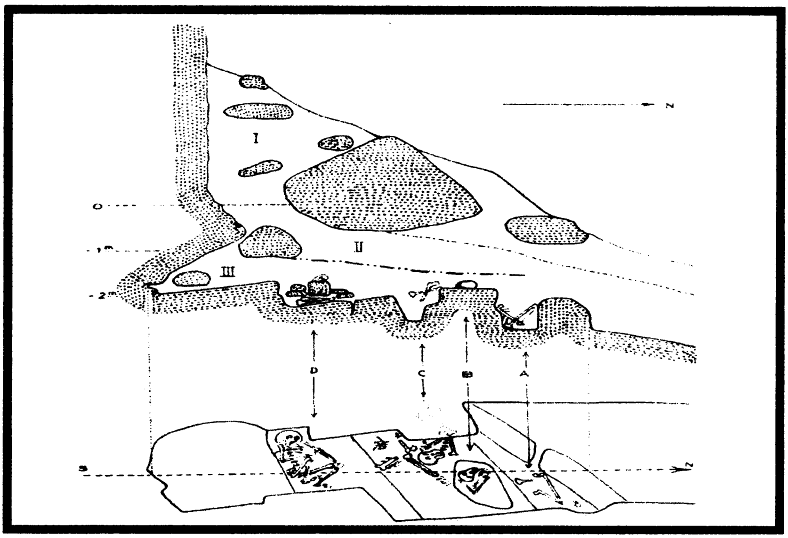


شكل رقم:1. موقع أفالو- بو- رمال، تم اكتشاف 48 هيكل في المستوىH1 أغلبها كاملة في وضعية منطوية، ما عدا حالتين في وضعية ممدودة ووجدت واحدة في المستوى H.2 والأخرى في المستوى H.28. (Arambourg C. et Al., 1913.- Op. Cit., p.57)



شكل رقم:2. رفع مدفن موقع افري نبارود الموجود بالريف الشرقي للمغرب الأقصى، عبارة عن دفن أولي في حفرة لامرأة كبيرة السن ذات قامة معتبرة.

(Ben Ncer A., 2004. – Op. Cit., p. 179, Fig. n° 4)



شكل رقم:3– رفع جانبي لموقع كلومناطة، مع وجود أهم المدافن في المستوى الثالث.

(Cadenat P., 1954-1955.- Op. Cit., p. 265)

أما في المناطق الجنوبية الجزائرية وبالذات بالأهقار والطاسيلي- نازجر، فقد تم تنقيب أشكال لمدافن من نوع الجثى ومعالم جنائزية أخرى هائلة، وتم تأريخها إلى أكثر ما يزيد عن 5000 سنة قبل الحاضر، ويمكن ذكر على سبيل المثال موقع لوني بالأهقار حيث قام J. P. Maître بتنقيب جثوة، وأرخت بقايا فحمية أعطت 5055 ± 85 سنة أي حوالي 3105 سنة قبل الميلاد (37).

كما قدّم الباحث عبد القادر حدوش (38) أعمالا حديثة، ساهم من خلالها على تسليط الضوء على بعض المعطيات الأثرية الهامة في هذا المجال، والخاصة بتصنيف وتعريف المعالم الجنائزية في مناطق الأهقار بالقسم الجنوبي الجزائري(39).

تقتصر الأبحاث في فترة فجر التاريخ ببلاد المغرب في الغالب على المعالم الجنائزية التي تعتبر عديدة ومتنوّعة، علما أن هذه المناطق الجغرافية الواسعة تزخر أيضا بوجود آثار لم تعط لها العناية الكاملة، ومن أهمها البنيات السكنية والفن الصخري وغيرهما.

تعد هذه الشواهد الأثرية مهمة بالنسبة لفترة فجر التاريخ التي لا يمكن الاستغناء عن دراستها والتدقيق في شأنها، إذ تفيدنا بمعلومات ومعطيات عن مختلف النشاطات اليومية والتنظيم الاجتماعي لهذه الفترة الغامضة والصعبة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن علم الآثار في فترة فجر التاريخ يبحث عن كل المخلفات الأثرية خاصة المباني الجنائزية التي يمكن اعتبارها كفضاء ديني ومقدّس، ولكن في غياب النصوص المكتوبة أو الشفهية لدراسة المعتقدات الجنائزية، يلجأ الباحث المختص في فترة فجر التاريخ إلى جمع أقصى ما يمكن من المعلومات والآثار، وكل التفاصيل الضرورية لإعادة تشكيل الطقوس الجنائزية.

إن الأهمية التي تحظى بها عملية الدفن مع المرفقات من أوان يومية كالفخار والحلي والأسلحة وغيرها التي كانت تحيطه في حياته الدنيا، تؤكد فكر الميت وإيمانه بحياة أخرى بعد الموت والتي سيحتاج إليها، والمدفن سواء كان فرديا

أو جماعيـا فإنـه يعتـبر إبـرازا لمعتقـد ديـني وشـعائري ورابطـة موجـودة مـا بـين المتوفى والأحياء.

ولذلك فإن الدراسة المثمرة في فترة فجر التاريخ تتطلب أعمالا ميدانية متتاليـة وكثيفة وأطروحات جديدة، مع الإحاطة بالمعطيات العامة وإبراز البيانـات المتفـق عليها في الكتابات أو المراجع السابقة، الموجودة لدينا منذ ما يزيد عن أربعين سنة، والقيام بحفريات كثيرة حتى نحصل من خلالها على نتائج مرضية تسـمح بالمقارنـة والتحليل من عدة جوانب.

وتبقى الإشكاليات العديدة والمختلفة للفـترة الـتي نحـن بصـدد دراسـتها غـير واضحة، لذا ينبغي إعادة النظر في موضوع المجادلة المشـار إليـه، خاصـة في تـأريخ المواقع التي أثبتت الإحصائيات على وجود تأريخـات ضـئيلة، وهـذا مـا يصـعب توضيح الجوانب الغامضة لهذه الفترة(40).

2. **أهم تعريفات فجر التاريخ:** اهتم الكثير مـن المختصـين ابتـداء مـن بدايـة القرن العشرين بتوضيح مفهوم فجر التاريخ، ومن الضروري أولا تحديد فترة فجر التاريخ في إطاريه الزمني والثقافي.

وأول سؤال يطرح هو كيفية معرفة نهاية العصر الحجري الحديث وبداية فجـر التاريخ ثم نهاية فجر التاريخ وبداية التاريخ؟ وللإجابة على هذا السؤال يجدر بنـا تسليط الضوء على بعض التعريفات والتوضيحات التي أهتم بها بعض الباحثين.

تعتبر فترة فجر التاريخ من بين المراحل الصعبة في تحديدها الكرونولوجي، وقد ترتب عن ذلك جدال كبير بين عدة باحثين وتضـاربت الآراء حـول مفهـوم هـذه الفترة وتحديد بدايتها ونهايتها، ويظهر هذا جليا في الدراسات التي أعدهاSt. Gsell بين سنتي 1901 و1929، وأعمال M. Reygasse فيما بعد في سنة 1950، ثم أبحـاث G. Camps في سنة 1961، وغيرهم من الباحثين الذين اهتموا بهذه الفترة.

وانصبّت معارف ومعطيات هؤلاء الباحثين الخاصة بهذه المرحلة الانتقالية في دراسة المعالم الجنائزية المختلفة الأنواع، وطرق الدفن ودراسة أهم مرفقاتها الجنائزية. ورغم كل ما استخلص من نتائج وتأويلات واستنتاجات عن هذه الفترة، إلا أنها تبقى مبهمة وغامضة في الكثير من جوانبها العلمية، والتأريخية منها على وجه الخصوص.

تجدر الإشارة في هذا الشأن أن هناك عدة تعريفات توضح تضارب كبير في تحديد مفهوم فترة فجر التاريخ، وقد تنفرد هذه الفترة بطابع خاص بسبب الاختلافات الكبيرة ما بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية القديمة. ومن أهم التعريفات التي وردت في المراجع المتخصصة في الآثار، هو تعريف J. Dechelette لفترة فجر التاريخ بأوروبا التي يعتبرها مرحلة انتقالية أو فاصل ما بين ما قبل التاريخ والتاريخ بما يتناسب مع عصري البرونز والحديد، وزمنيا مع الألفيتين الأخيرتين قبل الميلاد، ويجدر الذكر على أن J. Dechelette يعد أول باحث عرّف هذه الفترة.

أما بالنسبة لبلاد المغرب، فقد استعمل M. Reygasse مصطلح "أسبق" أو "ما قبل الإسلامي" بدلا من مصطلح فجر التاريخ، لكن ماذا يقصد بما قبل الإسلامي؟ يعني هذا المفهوم بكل بساطة سابق لظهور الإسلام، وهذا المفهوم الأخير له معنى محدّد وغير معرّف، فالمقصود أن كل معلم جنائزي بصفة عامة، كان يعتبر لاحقا للعصر الحجري الحديث وسابقا للإسلام.

أما فيما يتعلق بالباحث L. Balout، فإنه لم يتمكن من تحديد مصطلح فجر التاريخ إلا في سنة 1955 حيث عرفه بالمدخل أو الحجرة الخلفية للتاريخ، لكنه يعكس حالة معارف ضيقة المفهوم في جوانبها المختلفة أكثر ما يحدّد بفترة زمنية. بينما يشير الباحث P. Cintas أنه في غياب النصوص، يمكن اعتبار المراحل البونية منتسبة أكثر إلى فترة فجر التاريخ منها إلى التاريخ، يجب الإشارة أن هذا الاستنتاج

انتقد من طرف G. Camps وأعتبر عمله غير علمي وغير مقنع من حيث الاستنتاجات العلمية.

ومن أهم التعريفات التي تبدو أكثر وضوحا هي تلك التي يقترحها J. Briard ويعتبر فترة فجر التاريخ علم يشمل مجموعة معارف حول الشعوب التي لم تعرف الكتابة والتي زامنت الحضارات التاريخية الأولى، فهي مرحلة عادية لانتقال الإنسان من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية حيث عرف فيها صناعة المعادن.

ويوضح G. Camps من جهته فترة فجر التاريخ لبلاد المغرب أنها تنفرد بطابع ومميزات خاصة بسبب الاختلافات الكبيرة ما بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية، ويعرّفها كدراسة للأصول البربرية وشكلا لعلم الآثار الريفي.

وفيما يخص علم الآثار الريفي فيعرفه G. Camps على أنه موضوع معاصر أو سابق أو لاحق لحضارة تاريخية ما، ويضيف أنه لا يعرف الكثير عن حياة السكان المحليين من الجانبين الاجتماعي والاقتصادي قبل وبداية العهد الروماني، ويمضي موضحا أنه لا يستبعد القول لكون الأبحاث في فجر التاريخ سبقت البحث عن ما قبل التاريخ، لكنها لم تحظ بالاهتمام اللازم. لذا فقد ظل فجر التاريخ غامضا في حلقاته المختلفة نظرا لغياب الاختصاصيين بالدرجة الأولى ومناهج البحث غير الملائمة والنقص الكبير للحفريات.

نظرا للمعطيات والنتائج الأثرية التي تمّت ببلاد المغرب عامة وفي الجزائر خاصة، يعرّف G. Camps فترة فجر التاريخ بمرحلة المعادن، وهي مرحلة متزامنة مع العهد البوني، وتشكل هذه الفترة بالنسبة إليه عالم البربر القديم اعتمادا على دراسته للفخار.

وحتى يتسنى توضيح مفهوم فجر التاريخ، فإن أسهل الأمور هو من دون شك التذكير أولا بالتعريف الوارد في القاموس الخاص بآثار ما قبل التاريخ وفجر التاريخ حيث ورد أن مصطلح فجر التاريخ يتعلق بمجموعات ثقافية تحدّدها طبيعة الوثائق

للدراسة، وقد يتعلق الأمر إما بشعوب لا تملك كتابة وأخرى معروفة بالروايات المكتوبة أو الشفوية. وفي كلتا الحالتين يمكن للدراسة أن تنسّق ما بين الوثائق الأثرية والمصادر النصوصية، ويعني المصطلح بإيجاز مرحلة زمنية انتقالية لكن بصفة غير مدققة. اتفق المختصون أن بداية فجر التاريخ تأتي مع انتهاء عصور ما قبل التاريخ ونهايته مع ظهور الوثيقة المدونة، لكن تبقى بدايته غير واضحة ومدققة وذلك راجع لنقص الدلائل الأثرية والمعطيات التأريخية. وبالرغم من ذلك يذهب البعض إلى تحديد بداية فجر التاريخ إلى حدود 3000 سنة قبل الميلاد بالنسبة لبلاد المغرب، وتبقى نهاية فترة فجر التاريخ غامضة هي الأخرى. يرجعها بعض المختصين إلى ظهور الوثيقة المدونة والتي تعود إلى حوالي 1500 سنة قبل الميلاد ويرجعها البعض الآخر إلى الدخول الفينيقي وتأسيسهم لأولى مستوطنات أتيك بتونس سنة 1100 قبل الميلاد، وهي تبعد عن البحر المتوسط بحوالي 20 كلم، ثم تأسيس قرطاجة خلال القرن الثامن قبل الميلاد. ورغم هذه التعريفات المتضاربة الآراء إلا أن هذه الفترة تبقى مبهمة وغير محددة منهجيا وحضاريا.

الخاتمة

لقد أمكن تعريف فترة فجر التاريخ على أنها مرحلة انتقالية برزت فيها ظواهر ثقافية وحضارية مختلفة ومتنوعة تتمثل في تنظيم نمط عيش بسيط حيث استخدمت فيه أدوات جديدة مثل الفخار الملّس والأدوات المعدنية، كما عرفت الفن الصخري والزراعة والمسكن، وظهور عادات جنائزية جديدة لم تكن معروفة من قبل اختارت هذه الشعوب عادات وممارسات جنائزية لتحضير قبور مختلفة ومتنوعة وطرق لدفن موتاهم. وقد ارتبطت هذه المعالم بالمدفن الفردي أو المدفن الجماعي اللذين يمكن اعتبارهما نشاطا لاعتقادات تعبّدية وعلاقة وجود بين الأحياء والأموات، والتي يمكن من خلالها كشف الممارسات والطقوس الجنائزية.

يمكن استنتاج من خلال ما ذكر سابقا، تعريف بسيط لفترة فجر التاريخ كمرحلة انتقالية برزت فيها ظواهر ثقافية وحضارية مختلفة ومتنوعة، تتمثل في تنظيم نمط عيش بسيط حيث استخدمت فيه أدوات جديدة مثل الفخار المملّس والأدوات المعدنية، كما عرفت هذه الفترة الفن الصخري والزراعة والمسكن وظهور عادات جنائزية جديدة لم تكن معروفة من قبل، فمن دون شك أن بلاد المغرب عرف فترة فجر التاريخ موالية للعصر الحجري الحديث وسابقة أو معاصرة للوجود البوني، في حين تبقى نهايته مبهمة لعدة أسباب، خاصة النقص الفادح للأبحاث الميدانية الذي يشكّل عائقا كبيرا في تعريف فجر التاريخ.

الهوامش:

(1) يجب الإشارة أن نهاية العصر الحجري الحديث تختلف من منطقة إلى منطقة ومن موقع لأخر و حتى من تأثير أو تيار لأخر، لذا يصعب علينا معرفة جيدة لنهاية العصر الحجري الحديث في بلاد المغرب عامة و في الجزائر خاصة.

(2) البونية: هي تمازج العنصر الفينيقي بالنوميدي، ظهر هذا المصطلح لتمييز الفينيقيين المقيمين في الشرق والفينيقيين المقيمين في الغرب الذين تسموا بالبونيين.

(3) أهم المشاريع السارية المفعول في فترة فجر التاريخ هو مشروع حفريات مقابر وادي مزي بمنطقة الأغواط بجبال العمور في الشمال إضافة إلى مشروع حفريات المعالم الجنائزية بالأهقار في أقصى الجنوب.

(4) Léon L'Africain, 1956.- *Description de l'Afrique*. Edit. A. Epaulard, t. I, nouvelle édition, trad. A. Epaulard, Paris, pp : 225-226.

(5) Tommasini P., 1882.- Le tumuli de l'Arrondissement de Mascara. *B. S.A.P.*, pp : 543-545.

(6) كان يعمل الدكتور شاو بقنصلية بريطانيا في مدينة الجزائر.

(7) Shaw T., S.D.- *Voyage dans la régence d'Alger.* Trad. De J.M. Carthy. 2ème édit., Tunis. S.D. p. 85.

(8) Guiyon J. L., 1846.- Note sur des tombeaux d'origine inconnue situés au Ras Aconter entre Alger et Sidi Ferruch._*C.r. hebd. de l'Acad. des Sciences,* pp : 816-818.

(9) Rozet (Capitaine), 1833. - *Voyage dans le royaume d'Alger,* Alger, t. I., p. 11.

(10) Feraud. L., 1863 et 1864.- Monuments dits celtiques dans la province de Constantine. *R.N.M.S.A.C.,* Vol. XII, pp : 108-132 et pp : 214-234.

(11) Letourneux A., 1867.- *Sur les monuments funéraires de l'Algérie orientale.*

Arch. für Anthropologie, t. II, pp. 307-320.

(12) Faidherbe (Général), 1867.- Recherches anthropologiques sur les tombeaux mégalithiques de Rokina. *B. A. H.*, t. IV, pp ; 1-76.

(13) كان يعمل الباحث E. Masqueray أستاذ بثانوية بالجزائر العاصمة فأسندت له مهمات ورحلات استكشافية عديدة في مناطق الأوراس حيث برز من خلال أعماله في الميدان الأثري والأنتروبولوجي.

(14) Masqueray. E., 1876. - Voyages dans l'aouras, *B.S.G.*, pp : 453-465.

(15) Gsell St., 1929. -*Histoire ancienne de l'Afrique du Nord.* Edit. Hachette, Paris, t. V, 298 p et t. VI, 302 p.

(16) Gsell St., 1915.- Hérodote. *Textes anciens relatifs à l'Afrique du Nord.* A. Jourdan, Alger, 253 p.

(17) Camps G., 1961. - *Aux origines de la Berbèrie. Monuments et rites funéraires protohistoriques.* Edit. A.M.G., Paris, p. 26.

(18) Gsell St., 1900.- Les tumulus de la région de Boghar. *B.A.C.*, pp : 373-375.

(19) Reygasse M., 1950. - *Les monuments funéraires préislamiques de l'Afrique du Nord.* A.M.G, Paris, 134 p.

(20) Frobenius L., 1916.- *« Der Kleinafrikanische grabbau »*, Praehistorische Zeitschrift، pp : 1-84.

(21) يقصد بمصطلح المعالم الميغاليتية عند الباحثين القدماء تلك المعالم التي استعملت فيها الحجارة الكبيرة بكثرة في بنائها.

(22) Camps G., 1961.- Op. Cit., p. 27.

(23)Ibid., p. 34.

(24) Savary J.P., 1965. - *Monuments en pierres sèches du Fadnoun (Tassili-N'Ajjer).* Mém. du C.R.A.P.E, n° 6, A.M.G, 72 p.

(25) عزيز طارق ساحد، 1998- المعالم الجنائزية لمنطقة نقاوس، مقبرة سفيان، الحضنة الشرقية، رسالة ماجستير لنيل شهادة الماجستير في علم آثار ما قبل التاريخ، معهد الآثار، جامعة الجزائر.

(26) مصطفى رميلي، 2002- المعالم الجنائزية "فجر التاريخ" بمنطقة أشير، جبال التيطري، رسالة ماجستير لنيل شهادة الماجستير في علم آثار ما قبل التاريخ، معهد الآثار، جامعة الجزائر.

(27) يندرج هذا المشروع البحث في إطار التكوين البيداغوجي لطلبة معهد علم الآثار، تخصص ما قبل التاريخ.

(28) المدفن: هو مكان إيداع بقايا الميت أو عدة أموات، حيث نجد دلائل كافية تسمح للمختص في علم الآثار بأن يتبين في هذا "المستودع" الرغبة في تأدية ممارسة طقس جنائزي.

(29) Arambourg C., Boule M., Vallois H. et Verneau R., 1913. - *Les grottes des Beni-Seghouals (Algérie).* Arch. de l'I.P.H, Paris, Mém. n° 13, pp : 189-206.

(30) Hachi S., 1996.- Résultats des fouilles récentes d'Afalou bou Rmel (Bédjaia, Algérie). *Journée d'étude du C.N.R.P.A.H,* Avril1996. pp : 99-118.

(31) Derradji A. et al, 2003.- *Algérie, deux millions d'années d'histoire* : Les premiers habitants. Exposition dans le cadre de l'Année de l'Algérie en France .Edit. Oscar graphique, Alger, p. 59.

(32) Ferembach D., 1962. - *La nécropole épipaléolithique de Taforalt* (Maroc orientale). Etude des squelettes humains. Rabat, C.N.R.S, 175 p.

(33) Ben Ncer A., 2004.- Etude de la sépulture ibéromaurusienne 1 d'Ifri n'Baroud (Rif oriental, Maroc). *B.M.S A.P.*, t. 7, pp : 177 -185.

(34) Cadenat P., 1955. - Nouvelles fouilles à Columnata. Campagne de 1954-55. *Libyca,* t. III, pp. 263-285.

(35) Lacombe J.P., 2004.- Anthropologie du Néolithique marocain. La nécropole de Skhiret : Approche chrono - géographique des dysplasies pariétales. *B.M.S A.P.*, t. 7, pp : 155 -162.

(36) معلم جنائزي: هو عبارة عن بناء معماري مشكل من حجارة صغيرة و كبيرة ممزوجة بالتربة و مقام على مدفن أو عدة مدافن.

(37) Maître J.P., 1971- *Contribution à la préhistoire de l'Ahaggar. Téfedest centrale,* Edit. A.M.G, Paris, Mém. du C.R.A.P.E, n° XVII, p. 75.

(38) باحث بالمركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ و علم الإنسان و التاريخ و مسؤول مشروع بحث حول المعالم الجنائزية بالأهقار.

(39) Haddouche A., 2004.- Notes sur les monuments funéraires de l'Ahaggar. *Annales du M.N.A.*, n° 13, pp : 5-22.

(40) أهم الحفريات التي أجريت في الجزائر خلال السنوات الأخيرة هي: أشير بعين بوسيف بمنطقة المدية وسفيان بمنطقة نقاوس ووادي مزي بمنطقة الأغواط ومنطقة الأهقار بالجنوب الجزائري.

(41) Dechelette J., 1910. - *Manuel d'archéologie protohistorique, celtique et gallo-romain.* t. II, Edit. Auguste Picard, Paris, p. 2.

(42) Reygasse M., 1950. Op. Cit., 134 p.

(43)Balout L., 1955 .- *Préhistoire de l'Afrique du Nord.* Essai de chronologie. Edit. A.M.G, Paris, p. 450.

(44) Cintas P., 1961. - *Eléments d'étude pour une protohistoire de la Tunisie.* Publ. de l'Université de Tunis, Edit. P.U.F, Paris, 170 p.

(45) Camps G., 1961.- Op. Cit. 38.

(46) Briard J., 1991. – La protohistoire de Bretagne et d'Armorique. Edit. Errance, coll. Hespérides, Paris, pp : 7-9.

(47) يجب الإشارة أن دراسات الآثار الريفية في الجزائر لم تحظ بأهمية كبيرة بل ينعدم البحث فيها.

(48) Camps G., 1960.- Aux origines de la berbèrie. Massinissa ou les débuts de l'histoire. *Libyca,* Archéologie- épigraphie, t. VIII, p. 8.

(49) Camps G., 1961.- Op. Cit., p. 342.

(50) Leroi-Gourhan A., 1988. - *Dictionnaire de la préhistoire.* Edit. P.U.F, Paris, p. 868.

(51) Camps G., 1960.- Op. Cit., pp: 159-160.